في عام الكورونا .. ما تعكسه إحصائيات الوفيات الرسمية

الأربعاء ١٩ مايو ٢٠٢١

بسبب ندرة الكتابات، اعتقد الكثيرون ـ وأنا منهم ـ أن وباء الأنفلونزا الإسبانية الذى انتشر في عام ١٩١٨، وتسبب في وفاة ٥٠ مليون شخص حول العالم لم يصب مصر، ولكن في كتابه «الوباء الذى قتل ١٨٠ ألف مصري» الصادر عن دار الشروق قدم الدكتور محمد أبو الغار شرحا وافيا عن كيف أثرت الإنفلونزا الإسبانية على المجتمع المصري، كما أرفق أبو الغار في كتابه مجموعة من الإحصائيات المهمة عن سنة ١٩١٨.

واحدة من أبرز الإحصائيات في الكتاب ـ على الرغم من أن الكتاب لم يتوقف عندها ـ أن عدد سكان القاهرة فى سنة ١٩١٩ كان أقل عنه في سنة ١٩١٨، حيث عدد الوفيات في مصر بسبب الحرب والإنفلونزا تجاوز عدد المواليد في نفس السنة.

ويبين الكتاب كيف ارتفع معدل الوفيات في القاهرة من ٣٥,٨ حالة وفاة لكل ألف فرد في سنة ١٩١٧، إلى ٤٩,٤ حالة وفاة لكل ألف فرد في سنة ١٩١٨ أي بنسبة ٣٨٪ ارتفاعا وهى نسبة مفاجئة تعكس الأحداث الاستثنائية في تلك السنة، الأنفلونزا الإسبانية والحرب العالمية الأولى.

ويعتبر أسلوب تتبع الوفيات من أدق الطرق لتقييم آثار الأوبئة على المجتمعات؛ حيث إن معدلات الإصابات بالفيروس مرهونة بعدد المسحات ورغبة المريض في إجراء المسحة وقوة النظام الصحي في الدولة.

هناك تباين في تقدير عدد الإصابات في مصر. فعلى سبيل المثال قدر مركز بصيرة لبحوث الرأي في دارسته أن معدل الإصابات ٢٠ ضعف أرقام وزارة الصحة. ومن مزايا منهجية تتبع أرقام حالات الوفيات أن أرقامها تكون دقيقة ومحفوظة في مكاتب الصحة. تتخلص الفكرة المنهجية ببساطة أن حدوث أي قفزة أو ارتفاع مفاجئ ففي معدل الوفيات في سنة معينة وبمعدل أعلى من المعدل الطبيعي للوفيات في السنين السابقة، يعكس حدوث شيء استثنائي في تلك السنة مثل الحروب أو الأوبئة أو المجاعات.

وبشفافية أقدره عليها، قام الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء بنشر تقريره السنوي الإحصائي والذى اشتمل على معدلات المواليد والوفيات والزيادة السكانية خلال عام ٢٠٢٠.

ويتضح من التقرير أن أرقام المواليد في عام ٢٠٢٠ كانت في حدودها الطبيعية (٢،٢ مليون مولود جديد). أما عن حالات الوفيات فيتبين من أرقام الجهاز المركزي للإحصاء أن هناك ارتفاعا استثنائيا في حالات الوفيات في عام ٢٠٢٠ بالمقارنة مع معدلات الوفيات في السنوات السابقة حيث ارتفعت الحالات من ٥٧١ ألف حالة في عام ٢٠١٩ إلى ٦٤٥ ألف حالة في عام ٢٠٢٠ بنسبة نمو ١٣٪. هذه النسبة المرتفعة تتجاوز معدل النمو الطبيعي في الوفيات الذى يقدر في حدود الـ ٢ أو ٣% في السنوات الأخيرة. أي أن هناك ١٠% أو ٧٠ ألفا وفيات زائدة عن المعدل الطبيعي.

إن الزيادة فى الوفيات لا تعنى بالضرورة الوفاة بالكورونا، لكن هناك علاقة غير مباشرة بين الكورونا وحالات الوفاة مثل عدم توافر أجهزة التنفس الصناعي بسبب الكورونا أو نقص الرعاية أو الخوف من الذهاب إلى المستشفيات لتلقى العلاج أو تأجيل عملية بسبب الخوف من الإصابة بالفيروس ومن ثم تدهور الحالة الصحية لأصحاب الأمراض الأخرى. وجدير بالذكر حتى تكتمل الصورة، أن نسبة الوفيات الزائدة عن الطبيعي في بريطانيا وعن نفس الفترة وصلت ٤٠% وفرنسا ٩% وأمريكا ٤٤% وإيطاليا ١٢% والبرازيل ٢٨%.

كما توضح أرقام الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء نقطة بداية الموجة الأولى في مصر. في بداية شهر مايو ٢٠٢٠ ظهرت القفزة فى أرقام الوفيات بالمقارنة مع نفس الشهر في سنة ٢٠١٩ (عصر ما قبل الكورونا أو المعدل الطبيعي للوفيات) استمرت الزيادة حتى وصلت إلى ذروتها في شهر يونيو ٢٠٢٠. من ثم بدأ المنحنى (خط الأحمر) فى الهبوط تدريجيا حتى وصل إلى معدله الطبيعي (خط الأزرق) في شهر نوفمبر وديسمبر (نهاية الموجة الأولى). وهذا يوضح مسار الجائحة والوضع الوبائي ومتى يمكن التشديد ومتى يمكن العودة للحياة الطبيعية.

كما تكشف أرقام الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء عن المحافظات الأكثر تأثرا بالموجة الأولى من الكورونا. يتضح أن محافظات الجيزة والقليوبية والأقصر وأسوان كانت الأكثر تأثرا بالموجة الأولى، ارتفع فيها عدد الوفيات بأكثر من ٢٠% مقارنة بسنة ٢٠١٩ بينما محافظة الإسكندرية ومحافظة السويس كانا الأقل تأثرا حيث كان الارتفاع أقل من ١٠%. وبشكل عام، كان وجه قبلي أكثر تأثرا بالموجة الأولى بالمقارنة مع وجه بحرى. معرفة المحافظات الأكثر تأثرا بالفيروس شيء أساسي لتوفير العناية الطبية وتشديد الإجراءات دون الحاجة لتشديد الإجراءات على مستوى الجمهورية. مع العلم، أنه من الممكن أن تكون الصورة اختلفت الآن عما تعكسه إحصائيات عام ٢٠٢٠.

بالتأكيد إن عام ٢٠٢٠ كان عاما مؤلما بسبب الفيروس اللعين والذى أجهز على أكثر من ٣ ملايين شخص حول العالم. وفى ظل التفاوت في تقدير أثر الجائحة على المجتمع، يعتبر تحليل أرقام الوفيات لجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء وسيلة مهمة وأدق الطرق لمتابعة مسار الجائحة والحد من انتشارها. أتصور أنه من المفيد جدا أن تعمل وزارة الصحة مع جهاز الإحصاء على تحليل إجمالي حالات وفيات بشكل منتظم مع اتباع الأفراد لسلوكيات الوقاية من الفيروس وهو الأمر الذى سيساهم في الحد من انتشار الفيروس واتخاذ سياسات فعالة للسيطرة على الجائحة. حفظ الله مصر.